﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ أصناف النَّاس ما بين مطيعٍ ومتولٍّ في الآيةِ السَّابقةِ، جاءتْ هذه الآيةُ لبيان نوعٍ آخر من المتولِّين وهم المنافقون، فالآيةُ تتميمٌ لما قبلها في بيان أحوال النَّاس وموقفهم من طاعةِ الرَّسولِ، وهذه في غاية المناسبةِ، إذِ المقصودُ هو بيانُ صنفٍ يخفى على رسولِ اللهِ ﷺ، وهو ما يُناسبُ الإطنابَ في بيانِ أحوالِهم وأقوالِهم وسلوكِهم، بعد الإيجازِ في بيان المُطيعين والمتولِّين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾: الطَّاعَةُ: الانقِيَادُ والمُوَافَقَةُ، وأَصلُ الطَّاعَةِ مِنَ الطَّوْعِ وهُوَ الخُضُوعُ وَالتَّسْلِيمُ[1]؛ أي: إذا كانوا عندك يقولُ المُنافِقُون: سَمْعًا وطَاعةً، أو أَمرُك مُطاعٌ.

2) ﴿بَرَزُواْ﴾: البَرْزَةُ: اسمُ مَصدرٍ من بَرَزَ الشَّيءُ يَبْرُزُ بُرُوزًا: إذا ظَهَرَ وخَرَجَ، والبَرَازُ الفَضَاءُ مِنَ الأَرْضِ؛ أَي: خَرَجُوا مِنَ المَكَانِ يَكُونُونَ مَعَكَ فِيهِ إِلَى البَرَازِ مُنصَرِفِينَ إِلَى بُيُوتِهِم. ويُقالُ للمُقاتل: بَرَزَ للقِتَال؛ أي: خَرَجَ[2].

3) ﴿بَيَّتَ﴾: مَصدرُ (بَيَّتَ) التَّبْييتُ والاسمُ البَيَاتُ، وهو إِمَّا مِنَ البَيْتُوتَة؛ لأَنَّه قَضَاءُ الأَمْرِ وتدبيرُه باللَّيلِ، يُقَالُ: هذا أَمْرٌ بُيِّتَ بِلَيلٍ. وإِمَّا مِنْ أَبْيَاتِ الشِّعر؛ لأَنَّ الشَّاعر يُدَبِّرُهَا ويُسَوِّيهَا في بيته ليلًا[3]. والأَصلُ في التَّبييتِ إِنَّما يكونُ في البَيت، والأصلُ أَن تَكُونَ البَيْتُوتَةُ لَيلًا، ومَدَارُ المَادَّة كُلِّها الاستِخفاء، ولَفْظُ ﴿بَيَّتَ﴾ هُنا بِمعنَى قَدَّرَ أَمْرًا في السِّرِّ وأضمَرَهُ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (طوع).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (برز)، والآلوسي، روح المعاني: 3/89.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/539.

لأَنَّ أَصلَ البَيَاتِ هو فِعلُ شَيءٍ في اللَّيلِ، والعَربُ تَستَعيرُ ذلك إلى مَعنَى الإسرارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ أَكتَمُ لِلسِّرِّ، ولذَلكَ يَقُولُونَ: هذا أَمرٌ قُضِيَ بِلَيلٍ؛ أَي: لَم يَطَّلِع عليهِ أَحَدٌ، وقالَ الحارِثُ بنُ حِلِّزَةَ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا *** أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ[1]

4) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: الطَّائفةُ: الجَماعَةُ مِنَ النَّاسِ، لا واحدَ لَهَا مِنْ لَفظِها، مثل: فَرِيق، ورَهط، ونفَر، وجمعها: طوائف[2]، والمقصودُ بطائفةٍ في الآيةِ: جماعةٌ مِنَ المنافقين كانُوا عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وقالوا: آمنَّا بأفواههم، ولم تُؤْمِنْ قُلُوبُهُم.

5) ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾: القَولُ: كُلُّ لَفظٍ نَطَقَ بِهِ اللِّسانُ تامًّا كانَ أَو ناقِصًا، وفي مَعنَى ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ وجْهَانِ: الأوَّل: أَضْمَرُوا غَيرَ مَا قيلَ لَهُمْ. والآخر: أَضمَرُوا غَيْرَ مَا قَالُوا هُم، عَلى مَعنَى أنَّهم أَسَرُّوا غَيرَ مَا أَظهَرُوا وأَضمَرُوا الخِلافَ عَليكَ[3].

6) ﴿يَكْتُبُ﴾: الكِتَابَةُ: مَصدَرُ كَتَبْتُ، واسْتَكْتَبْتُ فلانًا: إذا أَمَرْتَهُ أَنْ يَكْتُبَ لكَ أو اتَّخَذْتَه كاتِبًا، أَيْ: يَكْتُبُهُ في صَحَائِفِ أَعمَالِهِم حَسَبَمَا تَكتُبُهُ الحَفَظَةُ لِيُجَازوا بِهِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يَكتُبُهُ في كِتَابِهِ إلَيكَ؛ أَي: يُنْزِلُهُ في القُرآنِ ويَعلَمُ بِهِ ويَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِم[4].

7) ﴿فَأَعْرِضْ﴾: الإعْرَاضُ: الصَّدُّ والتَّوَلِّي والرَّفضُ، ويُطلَقُ الإعْرَاضُ بِمَعْنَى: الانْصِرَافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقبَالُ والانقِيَادُ والطَّاعَةُ؛ أَي: لَا تُحَدِّث نَفسَكَ بِالانتِقَامِ مِنهُم. ولَيسَ المَعنَى فَأَعرِضْ عَن دَعوَتِهِم إلى الإيمَانِ وعَن وَعظِهِمْ[5].

8) ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: التَّوَكُّلُ: هُوَ إظهَارُ العَجزِ في الأَمرِ والاعْتِمَادُ عَلَى غَيرِكَ؛ أَي: وتَوَكَّل على اللَّهِ في شَأنِهِم، فإنَّ اللَّه يَكفِيكَ مَعَرَّتَهُم، ويَنتَقِم لكَ مِنْهُم إذا قَوِي أَمْرُ الإسْلَامِ وعَزّ أنصَارُهُ[6].

9) ﴿وَكِيلًا﴾: يُقَالُ: كَفَاكَ الشَّيءُ يَكفِيكَ. وَقَدْ كَفَى كِفَايَةً، إذَا قَامَ بِالأَمرِ، والوَكِيلُ هو

(1) ديوان الحارث بن حلزة، ص: 24، والزوزني، شرح المعلقات السبع، ص: 273.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(3) الواحدي، الوسيط: 6/625، وابن منظور، لسان العرب: (قول).
(4) ابن عباد، المحيط: (كتب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/725.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/539، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/725، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(6) الزّمخشري، الكشاف: 1/540.

المَوكُولُ إلَيه، وهُوَ فَعِيلٌ بمَعنَى مَفعُولٌ. وقَالَ ابنُ كيسان: وكَفَى باللّٰهِ مُعْتَمَدًا ومَلْجَأً. وَقِيلَ: الوَكِيلُ القَائِمُ بِمَا يُفَوَّضُ إلَيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ الكَرِيمَةُ، تَحكِي شأْنًا آخَرَ مِنْ شؤون المُنافقين. وهو إعلانُهُم طَاعَةَ الرَّسُول ﷺ بألسنتهم حينما يكونون معه، فإذا انصَرَفُوا من مَجلِسِهِ، وذَهَبُوا بَعِيدًا عَنه، دَبَّرَ زُعماؤُهم خِفيَةً في السِّرِّ - في اللَّيلِ أو النَّهارِ - مُخالفَة أَمْرِهِ ﷺ ونقض الَّذي قالوه بألسنتهم في مَجلِسِه، مُعتقِدِينَ أنَّ هذا التَّدبير الخَفِيّ لن يَعلَمَهُ الرَّسولُ ﷺ. وفَاتَهُم أنَّ اللّٰه يَعلمُ كلَّ مَا يتآمرُون عَليه، وقد سَجَّلَهُ عليهم، وأنَّه سَيكشِفُه لرسُولِهِ ﷺ وأنَّه سَيُعاقِبهم على هذا النِّفاق في الآخرة أشدَّ العِقَاب[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغائبِ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

سِمةُ المنافقِ التَّبجُّحُ بالطّاعةِ والنُّكوصُ إلى خلافِها

عبَّر الحقُّ تعالى بالحديث عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ بضمير الغائبِ، دونُ ذِكرهم والكَشفِ عن ذَواتهم، فلم يقل: وقالتْ طائفةٌ، ونحو هذا، وذلك ازدراءً بهم، وتحقيرًا لحالِهم، وامتهانًا لهم، واستخفافًا بشأنِهم، حتَّى لكأنَّهم أَهون من أن يتَعرَّف عليهم، وأَضأَلَ من أن تظهرَ لهم ذاتيَّة مُميَّزة لهم[3]، وأمرٌ آخرُ وهو الإشارةُ إلى أنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ إلّا عن أُناسٍ معروفين ودَيْدَنهم قولُ ما لا يعتقدون.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿طَاعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

﴿طَاعَةٌ﴾: مَصدَرٌ مَرفُوعٌ على أنَّهُ خَبَرٌ لِمُبتدأٍ مَحذُوفٍ؛ أَي: أَمْرُنا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا)، والواحدي، الوسيط: 6/628.
(2) الواحدي، الوسيط: 2/861.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/844.

أَوْ شَأْنُنا طاعةٌ، ولا يجوز إظهارُ هذا المبتدأ لأنَّ الخبرَ مصدرٌ بدلٌ من اللفظِ بفعلِه، أو مبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ تقديرُه: عندنا طاعةٌ[1]، والإعرابان صحيحان والأوَّل أوضح دلالةً، ومَعنى أَمرُكَ طاعَةٌ أنَّهُ مُطاعٌ، فَجَعَلَ المَصدَر في مَكَانِ اسْمِ المَفعُولِ لِلمُبالَغَةِ، فهوَ يَدُلُّ بِإيجَازِهِ على أَنَّهُم كَانُوا في حَضرَةِ الرَّسُولِ يَدَّعُونَ كمالَ الطَّاعةِ ويُظهِرُونَ مُنتَهَى الانقِيَادِ[2]، أي: أنَّهم لا يُحسنون إلَّا قولَ: ﴿طَاعَةٌ﴾، وفيه بيانٌ شديدِ نفاقِهم وقلَّةِ هوانِهم على أنفسِهم والنَّاس.

قبحُ المنافقِ يكمُنُ في مبالغتِه في إظهارِ الطَّاعةِ، وكتمِ النِّفاقِ

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾ في الآية:

الفَاءُ: للتَّعقِيبِ والمُباشَرة؛ أي: بمُجَّرد خُروجِهم مِن عِندكَ بيَّتَ طائفةٌ منهم، وهذا يدلُّ على تمكُّنِ النِّفاقِ من نفوسِهم، و(إذا) ظرفيَّةٌ زَمانيَّةٌ لما يُستقبل متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ، أي: حِينَ يَخرُجُونَ يُبيِّتون كأنَّه بدون فاصلٍ زمانيٍّ، وهذا يكشفُ عن مسارعَتِهم في الكفر وتهالُكِهم عليه، وفيه إعجازٌ غيبيٌّ لما سيصدُرُ عن أولئك المنافقين.

الإخبارُ عنِ المُسارعةِ في الكفرِ إعجازٌ غيبيٌّ

بلاغةُ المَجَازِ المُرسَل في قوله تعالى: ﴿بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَرَزُواْ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقةُ مُسَبَّبِيَّةٌ، بمعنَى: خَرَجُوا فبرزوا، فالخُروجُ يَنتج عنه بُروزهم وظُهورهم، وهو يُصَوِّرُ الخروجَ بخُرُوجِ الشَّيء مِنَ الضِّيقِ إلى السَّعَةِ، فهو تصويرٌ دقيقٌ مُعْجِزٌ لحالِ هؤلاء المُنافقين، الذين كانوا في مَجلِسِ الرَّسُولِ ﷺ أشباحًا لا تَكادُ تُرى، حتَّى إذا خَرجُوا مِن مَجلِسِ الرَّسُولِ ﷺ. تَطاوَلَت أعناقُهُم، وشَمخَت أُنُوفُهم، وانتفَضَتْ أجسامُهُم، فإذا هُم أَشبَهُ بالطَّواويس خُيلاءَ وإعجابًا! يَستعرضُون النَّاسَ، ويَعرضُون على أنظارهم هذا الوَجه الجَديد منهم، وكأنَّهم بذلكَ

بروزُ المنافقين يدلُّ على مرضِهم النَّفسيِّ، وطلبِ حبِّ الظّهور

(1) السمين، الدر المصون: 4/50.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/232.

يَستوفُون حظَّهم مِن بُروز الشَّخصية، ذلكَ الحَظّ الَّذي فاتَهم، وُهم يلبسونَ الوَجهَ الآخر، وجهَ الضُّمور والانزواء، الّذي يعيشُون به أكثَر ممَّا يعيشُونَ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ بالتَّذكيرِ دون التَّأنيثِ:

تنزيلُ الطَّائفةِ منزلةَ الرَّجلِ الواحد

اتَّفقَ القُرَّاءُ على تَذكيرِ ﴿بَيَّتَ﴾، قَالُوا: لَم يَقُل (بَيَّتَتْ) بتاءِ التَّأنيثِ؛ لأَنَّ تَأنيثَ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ غيرُ حَقيقيٍّ؛ ولأَنَّها بمَعنَى الفَريقِ والفَوجِ، وهذا التَّعليلُ كافٍ في بيانِ الجوازِ لا في بيانِ الاختيارِ، والأَصلُ أَنْ يُؤنَّثَ ضَميرُ المُؤنَّثِ، ولَو كانَ تَأنيثُهُ لَفظيًّا، ووَجهُ الاختيارِ هو أَنَّ تكرَارَ التَّاءِ قَبلَ الطَّاءِ القَريبَةِ منها في المَخرَجِ لَا يَخلُو مِنْ ثِقَلٍ على اللِّسَانِ؛ ولذلكَ تُحذَفُ إِحدَى التَّاءَينِ مِنْ مِثلِ تَتَصَدَّى وتَتَكَلَّمُ، فَيُقَالُ: تَصَدَّى وتَكَلَّمُ[2]، ونكتةُ التَّذكيرِ تنزيلُ الطَّائفةِ منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ، فهم على قلبِ رجلٍ منافقٍ واحدٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيَّتَ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

الإيماءُ إلى أنَّ أعمالَ المنافقين لا تكونُ إلَّا سرًّا

التعبيرُ بـ ﴿بَيَّتَ﴾ فاضحٌ لتدبيرِهم الماكر المستترِ، كاشفٌ عنه؛ فأَصْلُ الْبَيَاتِ هُوَ فِعْلُ شَيْءٍ فِي اللَّيْلِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعِيرُ ذَلِكَ إِلَى مَعْنَى الْإِسْرَارِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ أَكْتَمُ لِلسِّرِّ[3]، كما أنّه كاشفٌ عن شدّة خوفهم من رسول الله ﷺ. والمؤمنين معه لغايةٍ لا يَجرُؤون فيها على إعلان عكس ما قالوه.

معنى التَّبعيضِ في قولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

الـقـرآنُ يُعلِّمُ وجـوبَ الـعـدلِ مـع الـنَّـاسِ أجمعين

خَصَّ اللهُ طَائِفَةً مِنَ المُنافِقِينَ بالتَّبييتِ في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾، وكَلمَة (من) للتَّبعيضِ؛ لأنَّه تَعالى عَلِمَ أنَّ مِنهُم مَنْ يَبقَى على كُفرِهِ

(1) الراغب، المفردات: (برز)، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/844 - 845.

(2) رضا، تفسير المنار: 5/232، وقَرَأَ الْجُمْهُور: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ بِإِظْهَارِ تَاء: (بَيَّتَ) مِنْ طَاء: (طَائِفَةٌ)، وَقَرَأَهُ أَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَة، وَيَعْقُوب، وَخَلَفٌ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الطَّاءِ تَخْفِيفًا لقرب مخرجيهما، ينظر: ابن خالويه، إعراب القراءات، ص: 85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

ونِفَاقِهِ، ومُنهُم مَنْ يرجعُ عنه ويَتوبُ، فخصَّ مَن يصرُّ على النِّفاق بالذِّكر[1]. ثمّ إنَّ التّفصيلَ الكاشفَ لما سَيراه المنافقون واجتهدُوا في إخفائه كما يقتضيه التّعبيرُ بـ ﴿بَيَّتَ﴾ فيه بشارةٌ للمؤمنين بفضحِ أعدائهم الأخفياء، وفيه دليلٌ على وجوبِ العدلِ في المؤمنين وغيرِهم؛ فإنَّ الله كتبه على الجميع.

سرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ ومجيءِ الفعلِ مُضارِعًا لا ماضيًا:

مـهـارةُ المنـافـقِ في إحـــداثِ قولين متعاقبين متـعـارضـين في آنٍ واحدٍ

جاء المفعولُ به بلفظ ﴿غَيۡرَ﴾ لبيانِ المخالفةِ التّامةِ بين ما أظهرُوه أمامك، وما قالُوه من ورائك، ثمّ أضيف المفعولُ به إلى الاسم الموصول الخاصِّ لتحديد القول وتعيينه، ثمّ جاء بجملةِ الصّلةِ فعليةً فعلُها مضارعٌ عدولًا عن الماضي، وكان الظّاهرُ أن يُقالَ: غير الذي قالتْ، أي: الطَّائفة، على القولِ بأنَّ فاعل ﴿تَقُولُۖ﴾ يرجع للطَّائفةِ، "فقَد عَدَلَ عَنِ الفعل المَاضِي إلى الفعل المُضارع لقَصدِ الاستمرار"[2]، وفي هذا العدولِ إلاحةٌ إلى أن لم يكن ثمّةَ وقتٌ بين ما قالُوه وتغييره، وهو ما يتّسقُ مع التّعبير بفاءِ التّعقيب من قبل، ففيه بيانٌ لقدرةِ المنافقِ على إحداثِ قولين متعارِضين في وقتٍ واحدٍ، وهو يُشير إلى الحذر ممَّن يستطيعُ تغييرَ قولِه دون أدنى حرَجٍ!

توجيهُ اختلافِ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ:

أقـوالُ المنافقين مكتوبةٌ عليهم لا تفوتُهم فائتةٌ

يُلحَظُ أنّ التّعبيرَ جاء هنا ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ بالاسم الموصول الظَّاهر ﴿ٱلَّذِي﴾، وفي جملة الحال بعدها ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ جاء الاسمُ الموصول مُعبَّرًا عنه بأعمّ الموصولات (ما)؛ وذلك لأنَّ ما تقولُه الطَّائفةُ مُحدَّدٌ، بخلافِ ما يُكتبُ عليهم، فهو يعمُّ كلَّ شيءٍ، فهو تهديدٌ لهم ببيان أنّ كلَّ تبييتٍ مكتوبٌ مسجّلٌ، والمرادُ ما يترتّب على الكُتب من العقاب.

(1) الواحدي، الوسيط: 6/627، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/150، والدرة، تفسير القرآن الكريم: 2/545.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

سرُّ المجيءِ بصيغةِ المضارعِ لفعلِ القولِ:

وتِكرَارُ فِعلِ القَول مَرَّتين بِصيغَةِ المضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾، و﴿تَقُولُ﴾ دلالةٌ على ارتباط الفِعل بالطَّائفة المقصودة، ويؤكّد ذلك تكرارُ فعلتهم الدّنيئة بفعلين مقابلين للفعلين المذكورين آنفًا وهما: ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾. وبذلك قد جمَعُوا في حقدهم بين الجهرِ بالقولِ وبالخفاءِ بالتّبييت.

الكناية في جملة الحالِ: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾:

التّهديدُ والوعيدُ لكلِّ تَبييتٍ

تضمَّنتِ الجُملة تَهديدًا بإعلامِهم أنَّ الله تَعالى لَن يُفلِتَهُم من عِقَابِه، فَلا يَغُرَّنَّهُم تَأَخُّرُ العَذابِ مُدَّةً. وقَد دَلَّ بِصيغَةِ المُضَارِعِ في قَولِه: ﴿يَكۡتُبُ﴾ على تَجَدُّدِ ذلكَ، وأنَّهُ لا يُضَاعُ مِنهُ شَيءٌ[1]، وفي إسنادِ الكتابةِ للذَّاتِ العليّةِ بأهيبِ أسمائه تربيةٌ للمهابةِ، ومبالغةٌ في التّهديدِ لما يترتّبُ على الكتابةِ من عقابٍ شديدٍ، فجملةُ الحالِ كلّها كنايةٌ عن العقابِ الشّديدِ المبنيّ على الرَّصدِ المُحيطِ.

وجه التَّأكيدِ بقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾:

الإعـــراضُ عَـنِ المُنافقين سبيلُ الانتصافِ منهم

قولُه تعالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ مُؤَكِّدٌ لِقَوْلِه: ﴿وَمَن تَوَلَّ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، وهي أيضًا أمرٌ بِعَدَمِ الاكتِرَاثِ بِهِم، وأنَّهُم لَا يُخشَى خِلَافُهُم، أي: تَجافَ عَنهُم، ولا تتصدَّ للانتقامِ مِنهُم. والفاءُ لسببيّة ما قبلَهَا لما بعدَها[2]. وهي مبنيةٌ على جملة الحال مرتّبة عليها، لأنَّ جملة الحال بيّنت رصدَ فعالهم القبيحةِ، وكَنّت عن تهديدهم ووعيدهم، وهذا يُنتجُ معنى كأنّه قيل: إذا كان حسابُهم ومراقبتُهم شأنَ الله لا شأنك، فأعرض عن مواجهتِهم، ولا تلتفتْ إليهم، وقد جاءت الفاءُ إلاحةً إلى المسارعةِ في الإعراض وعدم الاكتراث، ويؤيّده استخدام (عن) وما فيها من معنى المجاوزة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1779.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/725، والآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

توجيهُ معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

الإعـــراضُ عن المنافقين مقترنٌ بـالـتَّـوكُّـلِ على الله وحده

إمَّا أن نحمل الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ على العطْفِ أو الاستئنافِ، فإذا جعلناها عاطفةً على ما قبلها، فبينهما تناسبٌ عجيبٌ، فمع المنافقين إعراضٌ وتفويضُ الأمر إلى الله تعالى؛ فقد بَيَّنَ الحقُّ تَبارَكَ وتعالى لنَبيِّه الكَريمِ مُحمَّد ﷺ أنَّ المُنافِقينَ الَّذينَ يَحضُرونَ مجلِسَكَ، ويُبدُونَ الطَّاعَةَ في الأَمرِ، ثُمَّ يُبيِّتُونَ مَا لَا يُرضَى مِنَ القَولِ، لَكَ في شَأنِهم أَمرَانِ: أَوَّلهما: الإعراضُ والصَّدُّ وعَدَمُ الانتِقَام. والآخَر: تَفويضُ الأَمرِ إلى اللّه تَعالى[1]، وهذانِ الأَمران يحصلُ بالأوَّل التَّجاوز عَن أَفعَالهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ القُرآنيُّ بـ (عنْ) الَّتي تُفيد التَّجاوز. ويحصلُ بالأَمر الآخر الاستعلاء على كَيدِ هؤلاء المُنافقين، وجاء السِّياق القُرآنيُّ بـ (عَلى) الَّذي يُفِيدُ الاستعلاءَ إشارةً لهذا المعنى اللَّطيف، قال الزَّمخشريُّ: فإنَّ اللّه يكفيكَ مَعرَّتَهم وينتقم لكَ مِنهم إذا قَوِيَ أَمْرُ الإسلام وعَزَّ أَنصَارُهُ[2].

الجملةُ القرآنيَّةُ تجري مجرى الأمثالِ لقوَّتها في النَّفس واختزالِها

وإذا جعلنا الواو استئنافيَّةً في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فالآيةُ تأخذ مأخذ الأمثالِ؛ فهي تُشعرُ باستقلالِ الجملةِ، إذ هذه الجملةُ من المُمكن أَنْ تُقتَطع مِن سِيَاقِهَا، وأن تَستَقِلَّ بإفادَةِ معناها؛ ولذلك يَشيعُ بعضُها شِيُوع الأَمثال، والَّذي أتاح ذلك هو ذِكر المُسند إليه، ولو كانَ المَذكور هو الضَّمير لارتبطَ بالكلام السَّابق؛ لأنَّ فيه مَرجعَهُ، وهذا الأسلوب يَشيع في القرآن كثيرًا[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/149.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/437.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 191.

نكتةُ وضعِ الظَّاهر موضعَ المضمرِ:

وُضع الظّاهرُ موضعَ المضمر في قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، فلم يقلْ: وكفى به، تأكيدًا لاستقلال الجملة، وإشعارًا بعليّة الحكم، وليتسنّى دخول الباء على المتعجّب منه؛ لأنّ الباء تدخل في فاعل كفى فتفيدُ التعجّبَ نصًّا، والمعنى: ما أكفاه وكيلًا!

فنُّ التَّصديرِ:

في الآية ردُّ العَجز على الصَّدر؛ حيث وافقت كلمة ﴿وَكِيلًا﴾ وهي آخر كلمة في الكلام، وكلمة ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في صدره، وهو جناس اشتقاق أيضًا. كما جاء لَفظُ الجَلالة مُظهَرًا في مقام الإضمار للإشعَارِ بِعِلَّةِ الحُكمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَروز والخُروج:

البروزُ: خلوصُ الشَّيءِ أو ظُهوره ظُهورًا قويًا؛ أي: نفاذُه من بين ما يكتنفُه بجَهد وقوة: كما يخلصُ الذّهبُ مما هو شديد الامتزاج به (حال كونه تبرًا) بتعَمُّل. ومن هذا بَرَز الرجل: إذا خرج إلى تلك الأرض البَرَاز، أي: أَبْعَد، قال تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154] كأنَّ المعنى لَدُفِعُوا إلى الخروج إليها. ومثلها ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21]: أُخرجوا من القُبُور مع مَلحَظِ الضِّيق، ومثلها ما في [إبراهيم: 48] و﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: 16]، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾. ومَا لا ينضحُ فيه قيد (الجهد) في الاستعمالات الأخيرة فهو من إسقاطه[2].

أمَّا الخُروجُ فهو النَّفاذُ عن الشَّيءِ، وضِدُّه: الدُّخُول. ومن معانيه الظُّهورُ، ومنه سُمِّي الخوارِج بذلك؛ لِخُروجِهم على النَّاسِ، أَو عن الدِّينِ، أو عن الحَقِّ، أو عن عليٍّ [3] ﷺ.

فالخُروجُ عادةً لا يكتنفُه كثيرُ جهدٍ وقوَّةٍ وضيق، فهو نَفاذٌ من الشَّيء بِسُهُولة، على خِلاف معنى البَروزِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/207، والآلوسي، روح المعاني: 3/89.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (برز).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خرج).

التَّوكُّل والتَّفويض:

يأتي التَّوَكُّلُ على وجهين، يُقال: تَوَكَّلْتُ لِفُلان بمعنى: تَولَّيتُ لَهُ، ويُقَالُ: وَكَّلتُهُ فَتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التّوبة: 51](1). والتفويض يَدُلُّ عَلَى اتِّكَالٍ في الأَمرِ عَلَى آخَرَ وَرَدِّهِ عَلَيهِ، ثُمَّ يُفَرَّعُ فَيَرُدُّ إِلَيهِ مَا يُشبِهُهُ. مِن ذَلِكَ فَوَّضَ إِلَيهِ أَمْرَهُ، إِذَا رَدَّهُ. قَالَ اللَّه تعالَى في قِصَّةِ مَنْ قَالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: 44](2).

وبَينَ التَّوكُّلِ والتفويض علاقة العُمُوم والخُصُوص؛ إذ التَّفويضُ أَوسعُ من معنى التَّوكُّل، والتَّوكُّل أخصُّ من التَّفويض، قال صاحب المنازل(3): والتّفويضُ ألطفُ إشارةً، وأوسعُ معنًى من التّوكّل، والتّوكّل يكون بعد وقوع السّبب، أمّا التّفويض فإنّه يكون قبل وقوع السّبب وبعده، والتّفويضُ هو عين الاستسلام، أمّا التّوكّل فهو شعبةٌ منه. يعني أنَّ المفوِّض يتبرَّأ من الحول والقوَّة، ويفوِّض الأمر إلى صاحبه، من غير أن يقيمه مقامَ نفسه في مصالحه، بخلاف التوكُّل، فإنَّ الوكالةَ تقتضي أن يقومَ الوكيلُ مقامَ الموكِّل. فالتفويضُ: براءةٌ وخروجٌ من الحول والقوَّة، وتسليمُ الأمر كلِّه إلى مالكه.

(1) الراغب، المفردات: (وكل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوض).
(3) الهروي، منازل السائرين، ص: 45.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»